

## العنوان ودلالاته في رواية "العودة من الفتوحات المكية والبرزخية" لمعمر حجيج

## The title and its implications in the novel "The Return from the Meccan and Isthmic Conquests" by Mâammar Hajejj

آسيا منصورية،<sup>1</sup> جامعة باتنة 1، assia.mansouria@univ-batna.dz

2025-05-28	تاريخ القبول	2025-05-01	تاريخ الارسال
------------	--------------	------------	---------------

## ملخص

تدرس هذه الورقة البحثية العنوان ودلالاته في رواية "العودة من الفتوحات المكية والبرزخية" لمعمر حجيج وذلك باعتباره أول عتبة يَطأها القارئ من أجل العبور إلى العمل الأدبي مهما كان جنسه ولونه، قصد قراءته وفهمه، وتحليله وفك شفراته التي تحيل القارئ على مضمون النص الذي يأتي شارحا ومفصلا له، ونظرا لأهميته البالغة، ومكانته المرموقة التي حضي بها سواء على المستوى النقدي أو الإبداعي، عدّه النقاد رابطا أساسيا بين المبدع والنص، ولا بدّ من حسن انتقائه وصياغته، والحرص على إخراجها في حلة مغرية للجمهور وخارقة للنظام اللغوي المعتاد، لأجل تحقيق القيم الجمالية والتعبيرية المرجوة. من هذا المنطلق ستسعى هذه الدراسة لإلقاء الضوء على رواية "العودة من الفتوحات المكية والبرزخية لمعمر حجيج"، وقراءتها ومن ثمّ مسائلة عنوانها مسائلة تحليلية بغية الوقوف على دلالاته واستجلاء أبعاده، وتحليله واستكناه بنياته اللغوية والدلالية والرمزية المترامية في زوايا الرواية.

**الكلمات المفتاحية:** عنوان، رواية؛ دلالة؛ معمر حجيج؛ العودة من الفتوحات المكية والبرزخية.

## Abstract

This research paper explores the title and its significations in the novel The Return from the Meccan and Barzakh Conquests by Moammar Hajij. The title is considered the first threshold that a reader steps onto in order to access the literary work, regardless of its genre or nature, with the aim of reading, understanding, analyzing, and deciphering its codes, which guide the reader to the text's content. This content serves as an explanation and elaboration of the title. Due to its immense significance and esteemed status—both critically and creatively—critics have regarded the title as a fundamental link between the author and the text. Therefore, careful selection, precise formulation, and an engaging presentation that breaks conventional linguistic norms are essential to achieving the desired aesthetic and expressive values.

From this perspective, this study seeks to shed light on The Return from the Meccan and Barzakh Conquests by Moammar Hajij, examining and analyzing its title in order to uncover its meanings, explore its dimensions, and delve into its linguistic, semantic, and symbolic structures embedded throughout the novel.

**Keywords:** Title; A Novel; Significance; Moammar Hajij; Return from the Meccan and Barzakhian Conquests

يعد العنوان الواجهة الأولى التي تصادف القارئ قبل فتح الكتاب وتصفحه وإصدار رأي عنه، ولا يمكن تجاوزها مهما علا شأن الكتاب أو قل، فالعنوان مثله مثل باب البيت الذي لا يمكن لأحد أن يدخله ويتنقل في أرجائه ما لم يعبر من الباب، والقلم الحجاجي من بين الأقلام التي أبدعت في فضاء الكتابة وصياغة العناوين إلى حد بعيد.

ونظرا لكثرة الأعمال الروائية التي خطها ارتأينا أن نختار منها رواية: "العودة من الفتوحات المكية والبرزخية" لأجل الكشف عن المكامن الخفية فيها من خلال استقراء عنوانها، بتحليله وتأويله واستجلاء أبعاده، وتماشيا مع ما تم ذكره تداعت لنا فكرة طرح هذه الأسئلة:

- ما الحمولات الدلالية التي حملها عنوان هذه الرواية؟  
- وما مدى تعالق عنوانها مع متنها الروائي؟ وهل يعد العنوان نقطة وصل قرائية بين النص والمتلقي؟  
كما نفترض أن تلقى روايات الجزائري معمر حجاج إقبالا من طرف المتلقين المعاصرين، وكذا الدارسين وتطبيق مناهجهم الحديثة عليها، بعد كثرة دراستها وتشهيرها .  
والجدير بالذكر أن هذه الدراسة تهدف إلى:

- تسليط الضوء على رواية العودة من الفتوحات المكية والبرزخية، والبحث في حيثياتها.  
- استخلاص ميزات عنوانها التي ينفرد بها عن باقي عناوين رواياته، هذا بالإضافة إلى التعرف على أسلوبه وطريقته في الكتابة وصلته بالتراث الصوفي.

كما لا تخلو أي دراسة من منهج، باعتباره المنارة التي تأخذ على عاتقها السير بالبحوث نحو الاتجاه الصحيح والتنظيم المحكم لذلك قررنا الاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي في عملية نسج خيوط هذه الورقة البحثية، بداية بالتنظير للعنوان بصفة عامة، ثم اللوج إلى عالم الرواية ومن ثمة تحليل عنوانها على وجه الخصوص، وصولا إلى استخلاص الروابط التي جمعت بين هذا العنوان و متن الرواية، واكتشاف مكن الجمال الذي جعل المتلقين ينجذبون إليها.  
والإجابة عن هذه الأسئلة الإشكالية المطروحة والتحقق من الفرضيات التي تبعتها يقتضي منا الأمر قراءة الرواية وسبر أغوار البحث في عنوانها.

## 1. مفهوم العنوان ووظائفه

لا يختلف اثنان في أن دراسة العنوان أمر له قدر عال من الأهمية، لأنه واحد من العلامات السيميوطيقية الهامة في العمل الأدبي وذلك لكونه البوابة الكبرى للولوج إلى عالم النص، ذلك العالم المليء بالبنى الدلالية والرمزية المتنوعة حيث يعرفه ليوهوك (Léo hoek) -أحد أقطاب علم العنونة- بأنه "مجموع العلاقات اللسانية التي يمكن أن ترسم على نص ما من أجل تعيينه، وكذا الإشارة إلى المحتوى العام، وأيضا إلى جذب القارئ" (أشهبون، 2011، صفحة 17).

كما يعد أيضا استراتيجية يستخدمها الكاتب في لفت انتباه المتلقي والاستحواذ على فكره، وجذب اهتمامه ليصبح راغبا في معرفة مضمون النص، وكل ما خفي منه، ويؤيد هذه الفكرة محمد

باز بقوله: "العنوان اظهار لخي ووسمٌ للمادة المكتوبة، إنه توسيم واطهار، فالكتاب يخفي محتواه، ولا يفصح عنه، ثم يأتي العنوان ليظهر أسراره، ويكشف العناصر الواسعة الخفية أو الظاهرة بشكل مختزل وموجز" (باز، 2011، صفحة 11).

إلى جانب كونه يلعب دورا كبيرا في كشف خفايا النص فهو أيضا يتحكم في نسبة المقروئية ويساهم في ترابط أجزاء النص، يقول جميل حمداوي في هذا الصدد: "العنوان هو المفتاح الضروري لسبر أغوار النص، والتعمق في شعبه التائهة، والسفر في دهاليزه الممتدة، كما أنه الأداة التي بها يتحقق اتساق النص وانسجامه وبها تبرز مقروئية النص، وتنكشف مقاصده المباشرة وغير المباشرة، وبالتالي فالنص هو العنوان والعنوان هو النص وبينهما علاقات جدلية وانعكاسية أو علاقات تعيينية أو إيحائية، أو علاقات كلية أو جزئية" (حمداوي، 2020، صفحة 8)، فهو إذن المفتاح العتباتي للنص الذي يقوم بعدة وظائف اختصرها جيرار جينيت في أربع وظائف، أولها الوظيفة التعيينية وذلك بإعطاء المؤلف اسما لكتابه لكي يميزه عن بقية الكتب، ثم الوظيفة الوصفية المتعلقة بمضمون وفحوى الكتاب، والوظيفة الإيحائية وهي التي ترتبط بالأسلوب الذي يعين من خلاله الكتاب، أما الأخيرة فهي الوظيفة الإغرائية وبها يلعب العنوان لعبته في إغراء القارئ وجذبه لقراءة الكتاب" (أشهبون، 2011، الصفحات 19-20).

غير أن كولد نشتين بلور له وظائف أخرى تتمثل في "وظيفة فتح الشهية، أي نعم.. وذلك من خلال إثارة القارئ واستمالة إلى النص، ووظيفة تلخيصية باعتبار العنوان تلخيصا للنص واعلانا عنه، ثم الوظيفة التمييزية وفيه يخصص العنوان هذا النص ويميزه عن باقي الأعمال الأخرى التي تندرج فيها" (أشهبون، 2011، صفحة 20).

مهما تعددت وظائفه إلا أنه يبقى لصيقا بالمتن ولا عبور إلى النص دونه، كما يشكل أيضا الجسر الذي يربط بين النص والقارئ، لأنه يمثل أول حالة تواصل بينهما، وعند العودة لعنوان هذه الرواية وتفكيكها نحصل على عدة تشكيلات تحوي في ثناياها سمات لغوية متنوعة ودلالات متعددة.

## 2. دلالة عنوان الرواية: "العودة من الفتوحات المكية والبرزخية"

العودة من الفتوحات المكية والبرزخية: هو عنوان رواية تحمل كل ملامح الجدة والابتكار والجمال، واستمدت كل هذه المزايا من عنوانها، ذلك أنه أول ما يسترعي اهتمام القارئ ويجذبه إليه ويثير فيه الاستفزاز والإغراء ويولد في نفسه الفضول الذي يدفعه لقراءة الرواية، لأن كاتبه على دراية بأن نجاحه في انتقاء العنوان يؤدي إلى شهرة روايته ومن ثم نجاحه هو، فالعنوان يأخذ بيد القارئ ليستضيفه في عالم الرواية وأحداثها ويبقى إلى جانبه طوال الرحلة ليساعده على فهم دلالات النص السطحية والعميقة على حد سواء.

### 1.2. التركيب النحوي لعنوان الرواية

إذا أسقطنا العنوان من الناحية التركيبية لوجدناه جملة اسمية مركبة من أربع وحدات، وردت كلمته الأولى مبتدأ مرفوع (العودة)، ويليه حرف الجر بمعية اسمه المجرور (من الفتوحات)، ولفظة

(المكية) هي صفة مجرورة، تقترب بها لفظة (البرزخية) التي جاءت اسما معطوفا على ما سبقها، وقد ربط بينهما حرف العطف (الواو)، أما جملة الجار والمجرور فهي في محل رفع خبر للمبتدأ (العودة). والملاحظ أن الروائي عمد إلى استخدام هذه التركيبة التي بُني على أساسها العنوان المستهل بلفظة العودة لأجل تحفيز المتلقي وشد انتباهه ليصبح متسائلاً: من العائد؟ وما المقصود بالفتوحات المكية والبرزخية التي تمت العودة منها؟ ولماذا هذه العودة؟ فينتقل القارئ بعدها من متسائل إلى مجيب بغية إشباع فضوله وسدّ هذه الثغرة، ومنه يكون قد حقق الوظيفة الجمالية الإغرائية من وراء هذه الإيحاءات والشفرات، والعنوان لما جاء جملة اسمية فهو يدل على الاستقرار والثبوت، "وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت تجدد المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجده شيئاً بعد شيء" (الجرجاني، دت، صفحة 174)، وهذا خلاف الفعل الذي "موضوعه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء" (الجرجاني، دت، صفحة 174)، ودلالة هذا الثبوت في الرواية متعلق بثبوت بطل الرواية - حميدو - على رأيه وتعلقه المستمر بحياة المتصوفة وأفكارهم وشطحاتهم وتشبثه بأحلامه وعلى رأسها أن يصبح درويشا صوفيا اقتداءً بمحي الدين بن عربي.

## 2.2. الحركية المعجمية لعنوان الرواية

يبدو من الوهلة الأولى أن لفظة العودة تحيل لمعنى الرجوع إلى أمر ما بعد تركه، وهو نفس ما ورد في المعاجم الصوفية حسب ما أفادت به سعاد الحكيم: "العودة هي التوبة أي ترك الزلة والندم على ما فات والعزم على عدم الرجوع إلى ما فات" (الحكيم، 1981، صفحة 237) وبالتالي فالعنوان يتماشى ومضمون النص لأن الرواية لا تخرج عن دائرة عودة البطل حميدو من رحلته المكية والبرزخية بعد سبع سنوات، ورغبته في التوبة والتزام طريق الحق.

وعنوان الرواية متكون من قسمين، لذلك حري بنا تجزئة العنوان إلى كلمات وتحليل كل كلمة على حدى، بداية بلفظة العودة التي تحمل إيحاءات زمنية وحركية فهي تشير إلى حركة رجوع إلى نقطة أو مكان مألوف بعد رحلة أو تجربة، أضف إلى ذلك أن لفظة العودة على المستوى الأسلوبي، توحى بمعنى استعادة شيء مفقود أو تحقيق نوع من الانتصار الشخصي أو الروحي، وهي حركة ارتدادية تعكس تجربة تغيّر وتحول بعد رحلة أو استكشاف، كما يمكن أن تحمل معنى النهاية الدائرية التي تعود بالبطل إلى أصله أو لحالة توازن بعد خوض تجربة روحية أو حياتية، وفي الرواية تمثل العودة إعادة الاتصال بالذات بعد اجتياز تجارب وجودية، والروائي حجاج لما استخدم مصدر العودة بدلا من الفعل (يعود رجع) قد منح العبارة طابعا عاما، وزمنا مفتوحا وأضفى عليها في الوقت ذاته جمالا لا نظير له.

من الفتوحات المكية والبرزخية: كلمة الفتوحات ذات دلالة مزدوجة: فتح مادي (كالغزو) وفتح روحي (كالكشف) والمعرفة.

المكية: تعطي البعد المكاني والتاريخي لكنها في السياق تشير إلى رمزية روحية ترتبط بمدينة مكة كرمز للإيمان والتطهير.

والبرزخية: هذه الكلمة مستوحاة من المصطلح الصوفي والإسلامي، (البرزخ) كما هو معروف ومتفق عليه أنه يدل على حالة فاصلة بين الحياة والموت، المادي والروحي، الماضي والحاضر، وهي إشارة واضحة إلى رحلة البطل داخل هذه المساحات الغامضة، حيث تكون المعرفة مشروطة بالمرور عبر حالة البرزخ.

من هنا نستشف أن دمج "العودة" مع "الفتوحات المكية والبرزخية" في العنوان قد يُفهم على أنه رحلة استرجاعية أو تأملية في التجارب الصوفية، مما يُضفي على الرواية بُعدًا فلسفيًا يتناول العلاقة بين الذات والعالم الروحي، وهذا التناول يُبرز كيفية استلهام الأدب الجزائري المعاصر للتراث الصوفي وتوظيفه في سياقات سردية حديثة.

وبالتالي يُمكن القول إن العنوان يُعبّر عن رحلة روحية وتأميلية، تستلهم التراث الصوفي وتعيد تقديمه في سياق سردي معاصر، مما يُثري التجربة الأدبية ويُعمّق من دلالات النص، ومنه فإدخال لفظة البرزخية بجانب لفظة المكية أكسب العنوان طابعا تأمليا متداخلا بين العالمين من جهة، وجعل المفهوم أكثر تجريدا وارتباطا بالتجربة الإنسانية العامة من جهة أخرى.

وجدير بالذكر أن هذه الرواية إلى جانب انقسام عنونها إلى قسمين، نجد أيضا أنها مركبة في متنها من شقين أو روايتين إحداهما مكية وثانيتها برزخية، تحكي قصة صحفي بسيط يحلم في الأولى بتحرير قلمه من كل عبودية وسيطرة عليا أدت به إلى تفجير مقر جريدته ما جعله يدخل في غيبوبة سنين طوال تقدر على الأرجح بسبع سنوات على التمام، حيث يتألق فيها ويبدع في ملحمة البرزخية، مثلما صرح الراوي: "قبل حميدو أمه قبلة طفل، ودمعت عيناه، وقال لهم: ليست غيبوبة بل رحلة في عالم غير عالمنا، وكم تكون الفرحة حين يحلم الإنسان بكل هذه الأحلام في غيبوبته كحلم مأساوي، بل ككابوس من فيلم لا أتذكر جميع تفاصيله، وحين يستيقظ يجد أمامه كل من ذرف عليهم سيولا من الدموع لمقتلهم أكتشف أنه مجرد حلم، فلا يصدق نفسه، ويفرح من قلبه فرحة لم يذق حلاوتها وعطرها ونغمها في حياته. فرحة لن يستطيع أي روائي أو شاعر أن يولدها في عالم الكلمات.

أي فرحة يمكن تصويرها بعين الكاميرا، أو بعيون الكلمات التي تتولد منها في بعض الأحيان عبارات عمياء؟ فهل تعرفون كل أمواج الفرحة في القلوب، وسيمفونياتها الروحية حين دفنت في غيبوبتي كل من أحبهم، وفجأة أجدهم" (حجيج، 2021، صفحة 454)

وهكذا عاش البطل بين عالمين، عالم الواقع المادي المليء بالصراعات والتحديات والمتاعب، وعالم روحي يبحث فيه عن السلام والمعرفة والراحة، هذا إلى جانب شعوره بحالة من التوتر الداخلي والاعتراب عن الذات والمحيط والأهل، لما انطلق في رحلة استكشافية داخلية وخارجية مدفوعا بأسئلة وجودية تتعلق بالهوية الحياة الموت، مواجهها مواقف وأحداث عدة تكشف عن التناقض بين العالم المادي والروحي.

### 3. علاقة العنوان بالمتن

يترأى لنا من الوهلة الأولى أن هذا العنوان يؤسس علاقة ضمنية مع نصه، إذ ليس من الممكن فصل العنوان عن النص أو العكس، كما أنه في الوقت ذاته يتضح أن هذه العلاقة ليست مباشرة، بل تتطلب قراءة متأنية لفهم كيف عبر المتن عن العودة من خلال السرد والشخصيات والرموز والأحداث، وكيف نبأ العنوان عن التحولات الفكرية التي يعيشها البطل، وكيف عبر أيضا عن حالات من الكشف والعبور الروحي، لكون الرواية ككل أخذت شكل رحلة دائرية تتجسد فيها العودة كإطار زمني، تبدأ الرواية من حالة معينة (البحث عن الحقيقة) وتنتهي بعودة رمزية إلى الذات بعد التحولات الكبرى.

وهكذا فالعنوان وسيلة يتخذها القارئ للكشف عن مقصدية الكاتب ومدى سعيه للربط بينهما، فهذه الدوال الخمس أي؛ (العودة – من – الفتوحات – المكية – والبرزخية) التي تكوّن منها العنوان لها القدرة الكافية على زعزعة تفكير القارئ، وبعث الحيرة في نفسه، فيذهب للبحث عن أجوبة مقنعة في عوالم النص الخفية، ودهاليز هذه القرية الصغيرة التي يقطن فيها بطل الرواية وتدعى بقرية السبت بوغزال، أين تدور أحداث قصة هذه العائلة المتكونة من الأب والأم اللذين أرهقهما فراق أولادهما الثلاثة، فالابنة فاطمة الزهراء نفتها الحياة إلى الحدود التركية لمعالجة اللاجئين السوريين، والابن يوسف مختفي منذ تسع سنوات ولا خبر عنه، أما الابن الأصغر حميدو الذي يأبى البقاء مكتوف الأيدي منتظرا الأقدار التي تهزه كيفما تشاء وإنما ربط أفكاره بأحلام كثيرة فيقول: "يزيد عشقي للأحلام كي أخفف من أثقالتي، فأتخيل نفسي درويشا صوفيا مخفيا مثل جد أبي حين كانت روحه مرآة لكل روح تتأمل الروح الكونية السماوية، وتكون نجما يهتدي به كل سالك في طريق روحانياته ومكاشفاته ومشاهداته وكراماته" (حجيج، 2021، صفحة 10).

والأم يمينة لم تعد إلى الدعاء والتضرع لربها بأن يرجع لها ابنها الضائع، وإنما بحكم عيشها في مجتمع يؤمن بالكرامات ويشد الإزر بالأولياء، ويثق بالعرافين، فتعود إليهم عند الحاجة يقول: "حملتني أمي ثقلا آخر حين قدمتنني للعرافة "لعداسية" تزور قرينتنا في السبت بوغزال، كل صيف، فقرأت كف يدي اليمنى، وقالت لأمي: (هذا سترمييه الأقدار رمي عاصفة إلى مكان بعيد يقصده كل الخلق) وقرأت كف يدي اليسرى، وأخرجت صدفة بحرية ملونة بالأخضر والأصفر والأحمر، وقلبتها عدة مرات، وهي تهمس بتعويذات، وقالت لها: (يا لالة يمينة لا خوف عليه سيعود سبع مرات، وفي العودة الأخيرة سيكون له شأن عظيم) قبلتها أمي، وأهدت لها شالا أخضر، وجمعت لها ما باضت به دجاجاتها (السبع)" (حجيج، 2021، صفحة 11)

فهمة ايجاد يوسف صارت حملا فوق كتفي حميدو الذي جعل منها حلما سيسعى لتحقيقه إلى جانب حلمه الأول الذي استمد فكرته من حكايات أبيه عن جدّه ابن عربي، "كان حلم حياتي أن أفتح سبع مدن مازال عرفانها يحوم في السماء، أو مكفنا في أوراق صفراء، وأعود منها، وفي العودة السابعة سأكون وريث جد أبي، وأنذاك أرى نفسي في عالم آخر، ويجرب قلبي حروفا من بهجة سباحتي أحاور فيها قلبي بلغة الروح غير مفهومة عن العلوم السبعة محبرة بألوان كشفية من

مخطوط جد أبي تستضيء بأنوار الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي" (حجيج، 2021، صفحة 11)، فيجوب حميدو المدن السبعة ولا يرى أمامه سوى اشعاع التصوف، هائما على وجهه مقتنعا بأفكاره فيتعرف على أولياء الله الصالحين وعلى الزاهدين والمتصوفين في رحلته ولا يُنسيه أحد من هؤلاء فكرة ابن عربي المتجذرة في أعماقه إلا بعد ظهور أخيه بالرضاعة بلقاسم السبتي المدعو بلقاسم ولد الخامسة الذي تحاور معه عدة مرات في الهاتف وأيقظ فيه الشعور في المرة الأخيرة لما كلمه بكل مصداقية محاولا توجيهه نحو الصواب بقوله: "أنت ما زلت صحفيا صوفيا، ومن عجائب الدنيا أن يظهر في عالم الناس صحفياً مللك صوفيا، وقدوته أصحاب القبور، وتنسى قول الله تعالى: {قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور} [سورة الممتحنة، آية 13] ، وأبوك ما زال يحبب إليكم الفتوحات المكية لشيخ الكفر قائل الدين، وأمك قد رضعت من ثديها معك أنت في اليسار، وأنا في اليمين، وأكلت من يديها ما لذ وطاب من الأكلات حين كنت في قرية السبت بوغزال، وندمت عن كل ذلك ربما يكون قد شابه شيء من الحرام، وهي مازالت تؤمن بالعرفات، والعداسيات، والتمايم مثل أمي تماما" (حجيج، 2021، صفحة 408).

ويضيف له قائلا: "أنتم بيتكم وأكلكم ولباسكم حرام، وأخوك يوسف يدعي بأنه عاشق للفنون، وهي تحوم به حول الكفر ونهايتها الجنون، ويأتي يوما ليهيم على وجهه كمتشرد معتوه حين ينزل عليه عقاب رب العزة من لوحاته الشيطانية، وما زلت تحتفظون بها في داركم وتفتخرون بها، وتجعل داركم لا تدخل إليها الملائكة وتكون وكرا للشياطين كيف قبلت أن تعيش في بيت لا تدخله الملائكة" (حجيج، 2021، صفحة 409) ويستمر في إصراره ونصحه له بالتوبة "أنا أحبك لأنك أخي بالرضاعة، وسعادتني أن أنقذك بتوبة نصوحة حتى تمرق من ضلالك وكفرك مروق السهم حتى لا تغويك مرة أخرى أحلام الشيعة، وترهات الصوفية في لحظة ضعف إيمانك، وهم أشقاء في عبادة القبور" (حجيج، 2021، صفحة 414) وهنا يستفيق حميدو من غفلته ويعود أخوه بعد ضياعه، كما تعود أخته أيضا برفقة زوجها، وتنتهي تلك الرحلة الطويلة بعودته إلى حياته الطبيعية.

يقول: "الآن فقط اقتنعت أن الأعمال الأدبية الكبرى تولد من المأسى الكبرى. قلت لأبي: لا شفاء لي إلا بالعودة إلى صحيفة" الحرية والعرفان للجميع" كما تخيلتها في غيبوتي الحلمية، وأقلها من مقرها القديم كما تصورته في عالم غيبوتي إلى مقرها الاليكتروني الجديد في العالم الرقمي الذي يمكن تفجيريه بالهجمات السيرانية، وأنشر في ركن صحيفتي مقاطع من ملحمتي العودة من الفتوحات البرزخية كل يوم الاثنين، وهو اليوم الذي خرجت فيه من سجنك غير الدافئ، وانقشعت فيه آخر ضبابة برزخية عني، ومشيت على رجلي.

قال أبي: وأنا سأعود إلى صحيفتي "صوت الحقيقة والحرية" وليكن ما يكون تفرير، وسجن

ونفي... و... و...

قالت: زوجتي ليلي نور: أنا بدوري سأعود إلى العمل وأنشئ جريدة بعنوان صوت المرأة والطفل" (حجيج، 2021، صفحة 455) وهكذا يعود كل فرد من أفراد عائلته إلى مهمته، ويولد عمل جديد أدبي بهذه العودة المباركة.

من هنا يتضح لنا أن فكرة العودة هي المسيطرة على الملفوظ العنواني لهذه الرواية كيف لا! والعائد هو الصحفي حميدو الذي غاب عن الواقع وسافر إلى سبع مدن بغية نشر العرفان الصوفي فيها، ولذلك إذا ما أسقطنا رواية العودة من الفتوحات المكية والبرزخية في التراث الصوفي وتقصينا أثرها، سنجدها حتما تدور حول التصوف ككل من استحضار لكرامات الأولياء، وذكر لأهم الشخصيات الصوفية العريقة نحو ابن عربي، والحلاج وجلال الدين الرومي، والشيخ التيجاني وأبي مدين الغوث. واستنادا إلى هذه المعاني التي حوتها الرواية يمكننا أن نستخلص أن الروائي معمر حجيج شديد الانجذاب إلى التراث الصوفي وكثير الاطلاع عن أحوال المتصوفة، وفكرة الرجوع إلى تاريخ المتصوفة واختيار نموذج قد أزلت اللبس عن الرواية فكل دارس للتصوف أو مطلع على تراث المتصوفة للوهلة الأولى سيربط هذه الرواية (العودة من الفتوحات المكية والبرزخية) بكتاب محي الدين بن عربي (الفتوحات المكية) لذلك نجد محي الدين هو المحرك لأحداث الرواية لأن بطلها شديد التأثير والتعلق به، ما جعله يجوب في ملحمته البرزخية متقصيا أثر هذا المتصوف.

والمستخلص مما سبق أن هذا العنوان المكثف في مفردات قليلة قد ذاب في فضاء الكتاب وأسفر عن أكثر من أربع مائة صفحة، ليتبين هنا أن العنوان المكثف هو العنوان الأكثر قابلية للتأويل، لذلك يُكثر حجيج من الاعتماد على الرمز لأنه "لا يحمل هويته في ذاته، فهو يستعمل علامات وإشارات سابقة على وجوده، فكل الإيماءات والاشارات والملفوظات هي أشياء قابلة للإدراك، والفهم والتأويل، لكونها من مكونات الرمز، ولا يمكن للرمز أن يستمد فعاليته إلا من مجموع هذه الأشياء" (كعوان، 2009، صفحة 23)، وهو بهذه التقنيات التي يتخذها من توظيف الرموز، وحسن انتقاء المفردات لصياغة العناوين المغرية والجاذبة، واستحداث الخطابات غير المألوفة، جعله ينقل تجربته الروائية المليئة بالغموض والغرابة والتوتر إلى عالم مفعم بالحيوية مكتظ بالآليات الجديدة يوسمُ بعالم التجريب، كما أن الوحدات التي تألف منها العنوان متناسقات وملائمتات لبعضها البعض، حتى تسرب منها التناسق والانسجام إلى أحشاء الرواية وجعل أجزاءها وفصولها متسقة ومنسجمة، لتجسد في نهاية تكوينها هيكل نصي رائع تظهر فيه جمالية العنوان، وبراعة الروائي في حسن انتقائه وجدة طرحه ويُعد نظره للأمور وحكمته في معالجتها، وهو ما جعل بسام قطوس يقول: "العنوان سمة العمل الفني أو الأدبي الأول من حيث هو يضم النص الواسع في حالة اختزال وكمون كبيرين، ويختزن فيه بنيته أو دلالاته أو كليهما في آن" (قطوس، 2001، صفحة 39).

ولا مناص من القول إن هذا العنوان المختصر هو البنية الصغرى التي لا غنى عنها في فهم البنية الكبرى، ولا يوجد أي بديل أو نائب له في العمل الإبداعي، لأنه كلمات موجزة مكثفة تحمل دلالات عديدة؛ ذلك أن كل كلمة فيه تدين للنص بتفصيلها في آلاف الكلمات، وهو ما فعله الراوي تماما في نصه، حيث اختصر كل هذه المعاني الكثيرة المتناثرة في النص تحت عنوان مكون من كلمات قليلة على رأسها العودة، ونجاحه في صياغته للعنوان ساهم في إنجاح روايته إلى حد بعيد ومنه زيادة الإقبال عليها من قبل القراء.

وهكذا حصل الأمر مع رواية "العودة من الفتوحات المكية والبرزخية" للكاتب الجزائري معمر حجيج التي كانت في الماضي ولا تزال في الحاضر وستظل في المستقبل عملاً أدبياً يستلهم التراث الصوفي، خاصة أعمال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، حيث أشار العنوان إلى "الفتوحات المكية"، وهو أحد أشهر مؤلفات ابن عربي، والذي يتناول فيه رحلته الروحية ومعارفه الصوفية. أما مصطلح "البرزخية"، فيُلحح إلى مفهوم "البرزخ" في التصوف الإسلامي، وهو الحالة الوسطية بين الحياة الدنيا والآخرة، مما يعكس تجربة روحية عميقة تتجاوز الحدود المادية.

وختاماً نصل إلى فكرة جوهرية مفادها أن عنوان هذه الرواية ليس مجرد تسمية، بل هو جزء جوهري من بنيتها النصية، وله دور كبير في تشكيل تجربة القارئ وتأويله للعمل الأدبي، وإبراز الفكرة المحورية أو القضية التي تناولتها الرواية، كما لعب دوراً بالغاً في جذب انتباه القارئ وإثارة فضوله ودفعه لاستكشاف العمل، بعدما بعث في ذهنه جملة من التوقعات التي ثلح له عن نوعية الأحداث المطروحة، وأثر فيه أيما تأثير لما حمل في ثناياه وقعاً عاطفياً وفكرياً دفع به للتفاعل مع النص الروائي ككل.

### خاتمة البحث ونتائج الدراسة

بعد التطرق لرواية العودة من الفتوحات المكية والبرزخية، ودراستها وتحليلها تمكنا من اكتشاف ما حملته بين طياتها من زخم تراثي هائل متنوع بين رموز وكرامات وشخصيات وأفكار ومصطلحات صوفية، ومن ثمة خلصنا إلى جملة من النتائج جاءت على النحو الآتي:

- عنوان روايته يفتح للقراء نافذة للتأويل تأخذهم في رحلة جميلة يعانقون من خلالها النص، باحثون في أحداثه المترابطة والعجيبة والمثيرة عن معانيه ودلالاته.
- ورد العنوان من الناحية الإسنادية جملة اسمية تحمل دلالة الثبوت والاستقرار.
- علاقة العنوان بالنص سببية لأن وجود العنوان يقتضي وجود المعنون بالضرورة، ذلك أنهما نابعان لخدمة فكرة واحدة وتحقيق هدف واحد رسمه المؤلف، فيجعل العنوان سابقاً والنص لاحقاً.
- العنوان لم يعمل كمجرد عنصر تزييني، بل كجزء أساسي من نسيج الرواية ودلالاتها.
- العنوان يشير إلى النهاية التي تمثل العودة بعد تجربة اكتشاف الذات والعالم.
- رواية العودة عمل أدبي وفلسفي عميق يعكس رؤية معمر حجيج للإنسان ككائن يبحث عن المعنى في عالم مليء بالتناقضات.
- الرواية تستلهم التراث الصوفي، خاصة أعمال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، مما يُضفي عليها بُعداً فلسفياً وروحياً، معبرة في الوقت ذاته عن الصراع بين الواقع والمثال، مبرزةً للتحديات التي تواجه الساعي إلى الحقيقة والحرية في مجتمع مليء بالتحديات.
- هذا العمل يُظهر تداخل العوالم الواقعية والروحية، ويُقدّم تجربة سردية فريدة تعكس عمق الفكر الصوفي وتأثيره في الأدب الجزائري المعاصر.

- العنوان يمزج بين الماضي (الفتوحات) والحاضر مع المستقبل (العودة) مما يخلق ديناميكية زمنية تعكس السرد الروحي والبحث عن الذات.
- اعتمد المؤلف في صياغة العنوان على أسلوب التوازي والتكثيف الرمزي والغموض، لدرجة أصبح فيها مدخلا مكثفا ومثيرا ومفتوح التأويل يجذب القارئ بتشابهه الرمزي وإشاراته إلى عوالم صوفية وفلسفية متشابكة في الرواية .
- برزت خاصية الغموض والإيحاء على العنوان مما جعله مكثفا ومفتوحا التأويل يجذب القارئ بتشابهه الرمزي وإشاراته إلى عوالم صوفية وفلسفية.
- استخدام المصطلحات المستوحاة من التراث (الفتوحات، البرزخ) يخلق توازنا بين العمق الفكري والجمال اللغوي.
- جمال الرواية يجعلها تحقق نسبة مقروئية عالية، وتداولها بين القراء.

### قائمة المصادر والمراجع

1. أحمد كعوان. (2009). التأويل وخطاب الرمز- قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي (المجلد 1). الجزائر: دار بهاء الدين للنشر والتوزيع.
2. بسام موسى قطوس. (2001). سيمياء العنوان (المجلد 1). عمان: دائرة المكتبة الوطنية.
3. جميل حمداوي. (2020). سيميوطيقا العنوان (المجلد 2). دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني.
4. سعاد الحكيم. (1981). المعجم الصوفي (المجلد 1). لبنان: دار دندرة، لبنان.
5. عبد القاهر الجرجاني. (دت). دلائل الاعجاز (المجلد دط).
6. عبد المالك أشهبون. (2011). العنوان في الرواية العربية (المجلد 1). محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع.
7. محمد باز. (2011). العنوان في الثقافة العربية \_ التشكيل ومسالك التأويل (المجلد 1). الرباط: دار الأمان.
8. معمر حجيج. (2021). رواية العودة من الفتوحات المكية والبرزخية (المجلد 1). مؤسسة نقطة بوك للنشر والتوزيع.